المُحَاضرة الأولى: إعجازُ القُرآنِ؛ المفهومُ والتَّأصيلُ

ويتمُّ فيها – بحول الله وقوَّته – تناوُلُ المسائل الأربعِ الآتية: تعريفُ إعجاز القرآن لُغةً واصطلاحًا، والمعجزة وشروطها، والمصطلحاتُ المتعلِّقة بالمعجزة، والتَّحَدِّي وما يتعلَّقُ به. وهذ إجمالٌ تفصيلُه كالآتي:

المسألة الأولى: تعريف (إعجاز القرآن) لغةً واصطلاحًا

– لُغةً: لإدراك معنى (الإعجاز) على وجهه، لا بدّ من الرّجوع به إلى مادّته اللّغويّة، وملاحظة الرّابط بين هذه المعاني الواردة في أصل اللّغة، وبين المعنى الاصطلاحيّ.

فقد ذكر الرّازي (ت:666ه) في (مختار الصّحاح) في مادّة (ع ج ز) أنّ: «العجُز، بضمّ الجيم: مؤخّر الشّيء، يذكّر ويؤنّث[...] والعجْز الضّعف، وبابه ضَرَبَ و(معجِزًا) بفتح الجيم وكسرها، وفي الحديث: «لا تُلِثُّوا بدار معجزة» أي: لا تقيموا ببلدة تعجزون فيها عن الاكتساب والتّعيّش[...] و(أعجزه) الشّيء، فاته[...] و(المعجزة) واحدة معجزات الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام»[1].

كما ورد في (أساس البلاغة) للزّمخشريّ (ت:538ه) في المادّة ذاتها: «وطلبته فأعجز وعاجز، إذا سبق فلم يُدرَك»[2].

وعلى هذا النّحو جاءت مادّة (ع ج ز) في بقيّة المعاجم، ونحن إذا ما تأمّلنا هذه التّعاريف، وجدنا أنّها ترجع كلّها إلى معنيين اثنين: أحدهما الضّعف، والآخر التّأخّر، لذلك لمّ شملها ابنُ فارس(ت:395ه) . على عادته في ردّ المشتقّات إلى أصولها . فقال: «(ع ج ز) العين والجيم والزّاي، أصلان صحيحان، يدلّ أحدهما على الضّعف، والآخر على مؤخّر الشّيء»[3].

[1] الرازي، مختار الصحاح، ص176.

[2] الزمخشري، أساس البلاغة، ج1، ص635.

[3] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج4، ص232.

وهذا مناسب أتمّ المناسبة لما نحن بصدده من بيان إعجاز القرآن؛ إذ إنّ القوم (العرب) لما تُحُدُّوا إلى معارضة القرآن، إمّا كاعوا وجبنوا، فبان ضعفهم، أو أنّهم طلبوا ذلك وحاولوه، فأعياهم وفاتهم فصاروا بمنزلة المتأخّرين عنه، وكلا الأمرين حاصل وصحيح، وفي التعريف الاِصطلاحيِّ زيادة بيان وتوضيح[1].

– **اصطلاحًا**: اختلفت عبارات أهل العلم في ضبط مصطلح (الإعجاز):

– فنجد المناويّ (ت:1031هـ) ـ مثلاً ـ يقول: «الإعجاز في الكلام، تأديته بطريق أبلغ من كلِّ ما عداه من الطّرق»[2]. ولعلّنا نلحظ في هذا التّعريف تشابها كبيرا مع تعريف الرّمّانيّ (ت:386هـ) للبلاغة، إذ يقول: «البلاغة إيصال المعنى إلى القلب، في أحسن صورة من اللّفظ»[3]. وهذا إن دلّ على شيء، فإنَّما يدُلُّ على قيمة الوجه البلاغيّ في إعجاز القرآن، إذ أنّ أهل الشّأن على وفاق أنّه مراد.

– ولذلك عرَّفه الكفويّ (ت:1094هـ) كذلك في (الكُلِّيَّات) بقوله: «وإعجاز القرآن، ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته على ما هو الرّأي الصّحيح»[4].

– إلاَّ أنَّ تعريفَ الزُّرقانيِّ رحمه الله (ت:1367هـ=1947م) أدقُّ في ضبطِ المصطلح، وأشملُ في مدلوله إذ يقول: «إعجاز القرآن، مركّب إضافيّ، معناه بحسب أصل اللّغة: **إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحدّاهم به.** فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلّق بالفعل محذوف للعلم به، والتّقدير: إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحدّاهم به»[5]. فلا حرجَ منِ اعتماده والتَّعويل عليه.

المسألة الثَّانية: المُعجِزةُ وشُروطُها

– **المُعجزةُ لغةً**: اسمُ فاعلٍ من (أعْجَزَ وعَجَّز)، والهاءُ فيها إمَّا للمبالغة؛ كالَّتي في كلمات: علاَّمة ونسَّابة، يقالُ: رجلٌ علاَّمةٌ ونسَّابةٌ؛ إذا كان كثير العلم، شديد المعرفة بالأنساب. وإمَّا للنَّقل؛ أي نقلِ اللَّفظ من الوصفيَّة إلى الاِسميَّة؛ ككلمات الحقيقة والنَّطيحة والذَّبيحة، فإنَّها في الأصل أوصاف هي الحقيق والنطيح والذبيحُ، فلمَّا دخلت عليها التَّاءُ نقلتها من كونها وصفًا إلى كونها اسمًا؛ فنقول مثلا: هذا اللَّفظُ حقيقةٌ، وهذا الكبشُ ذبيحةٌ.

---

[1] يُنظر: العيد حذِّيق، جهود أهل السنة والجماعة في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن الكريم، ص14-15.

[2] المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص75.

[3] الرماني، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، ص75.

[4] أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص215.

[5] الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج2، ص259.

وعلى ذلك، فليست التاءُ في (مُعجزة) تاء تأنيث؛ لأنَّ تاء التَّأنيثِ يُؤتى بها للتَّفريق بين المذكَّر والمؤنَّث، وكلمة (المعجزة) ليست كذلك؛ إذ بإمكاننا أن نقول: (القرآن كلام الله المعجِز)، كما يسوغُ أن نقول: (القرآن هو مُعجِزةُ النبيِّ ﷺ)[1].

– **وأمَّا في لسان الشَّرع**: فقد تعددَّت عباراتُ أهل العلم في تعريفها، لكنَّ غالبَ كلامهم يدور على معنى مُتقاربٍ هو: أنَّ المعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة، سالمٌ من المعارضةِ، يُجريه الله ﷻ على يدِ نبيٍّ من أنبيائه، تصديقًا له في دعوى النُّبوَّةِ[2].

– قال القرطبيُّ رحمه الله (ت:671هـ): «الْمُعْجِزَةُ وَاحِدَةُ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَسُمِّيَتْ مُعْجِزَةً لِأَنَّ الْبَشَرَ يَعْجَزُونَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهَا»[3].

– وقد حدَّها السُّيوطيُّ رحمه الله (ت:911هـ) بقوله: «اعْلَمْ أَنَّ الْمُعْجِزَةَ: أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، مقرون بالتحدي، سالم عن الْمُعَارَضَةِ»[4]. إلاَّ أنَّهُ نُوزِعَ في اشتراطِ التَّحدِّي؛ فمن المعجزات ما لا تحدِّيَ فيه؛ لأنَّهُ أساسًا ليس مُوَجَّهًا للكفَّارِ المعاندين، بل للأتباعِ المؤمنين؛ كتكثير الطَّعامِ له ﷺ، ونبعِ الماء من بين أصابعه عليه السلام[5].

وهذا ما يقودُنا إلى الكلام عن شُروط المعجزة، فنقول:

– **شُروطُ المُعجزةِ**: قال القُرطبيُّ رحمه الله (ت:671هـ): «وَشَرَائِطُهَا خَمْسَةٌ فَإِنِ اختلَّ منها شرطٌ؛ لا تكونُ معجزةً»[6]. وهذه الشُّروط الخمسة إجمالاً هي: أن تكون خارقةً للعادةِ، وأَنْ تَكُونَ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وسلامتها من المعارضة، وأَنْ تَقَعَ عَلَى وَفْقِ دَعْوَى النَّبِيِّ الْمُتَحَدِّي بِهَا، وتأخُّر الأمر المعجز عن دعوى الرسالة. وتفصيلُها كالآتي:

1- أن تكون خارقةً للعادةِ: ومعنى خرقِها للعادةِ؛ أن تكون مُخالفةً للسُّنن الكونيَّة الَّتي جعلها الله ﷻ قوانين تحكمُ هذا الكون؛ كعدمِ إحراقِ النَّار، أو خُروجِ كائنٍ حيٍّ من الحجر، أو أن تنقلبَ عصا حيَّةً

[1] يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، 19-20. و: مصطفى مسلم، مباحثُ في إعجاز القرآن، ص18.

[2] يُنظر: صلاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص18.

[3] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص69.

[4] السيوطي، الإتقان، ج4، ص3.

[5] يُنظر: الخالدي، إعجاز القرآن البيانيُّ، ص20-21.

[6] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص69.

تسعى[1].وَإِنَّمَا وَجَبَ اشْتِرَاطُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ الْمُدَّعِي لِلرِّسَالَةِ: آيَتِي مَجِيءُ اللَّيْلِ بَعْدَ النَّهَارِ وَطُلُوعُ الشمس من مشرقها، لم يكن فيما ادعى مُعْجِزَةٌ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأَفْعَالَ وَإِنْ كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّهَا لَمْ تُفْعَلْ مِنْ أَجْلِهِ، وَقَدْ كَانَتْ قَبْلَ دَعْوَاهُ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي حِينِ دَعَوَاهُ[2].

2- أَنْ تَكُونَ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ويتضمَّنُ ذلك ابتداءً أن تكون من فعلِ الله ﷻ؛ إذ هو سبحانه الَّذي يُحدِّدُ نوعها ومكانها وزمانها، وهو الَّذي يُجري على يد نبيِّه ما يشاءُ ويختار من الآيات، والنبيُّ لا اختيار له، ولا قُدرة له على إجرائها. قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾[الرعد:38][3].

ثمَّ أن تكون ممَّا لا يقدرُ عله إلاَّ اللهُ ﷻ؛ حتَّى يثبت عجز البشر عنه؛ فلو ادَّعى مُدَّعٍ أنَّ مُعجزته أنَّه يتحرَّكُ ويسكن، ويقومُ ويقعد، لم يَكُنْ فيما ادَّعاه مُعْجِزَة، وَلَا كان دَالًّا عَلَى صِدْقِهِ؛ لِقُدْرَةِ الْخَلْقِ عَلَى مِثْلِهِ، وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْمُعْجِزَاتُ كَفَلْقِ الْبَحْرِ، وَانْشِقَاقِ الْقَمَرِ، وَمَا شَاكَلَهَا مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْبَشَرُ[4]. الْبَشَرُ[4].

3- سلامتها من المعارضة: أيْ أنَّ المتحَدَّين بها؛ لا يستطيعون نقضَها، ولا يقدِرون على الإتيان بمثلها، فلو استطاع الخصم المتَحدَّى أن يأتي بمثل ما جاء به النبيُّ؛ بطلت حُجَّتُه، ولم يُسَلَّمْ له ادعاؤه أن هذه الخارقة أو هذا الأمر معجزةٌ؛ أي دليل على صدقه وأمارة على بعثته من قِبَلِ اللهِ ﷻ[5].

4- أَنْ تَقَعَ عَلَى وَفْقِ دَعْوَى الْمُتَحَدِّي بِهَا الْمُسْتَشْهَدِ بِكَوْنِهَا مُعْجِزَةً لَهُ: فلو وقعتِ المعجزة على وجه غير الوجه الذي عيّنه الرسول لم تكن دليلا على صدقه؛ كأن يقول: مُعجزتي إحياءُ الموتى، فيكون الحاصلُ نطقُ الحجرِ مثلا، لم تكن هذه مُعجزةً. أو أن يقول: آيَةُ نُبُوَّتِي أَنْ تَنْطِقَ يَدِي أَوْ هَذِهِ الدَّابَّةُ، فَنَطَقَتْ يَدُهُ أَوِ الدَّابَّةُ بِأَنْ قَالَتْ: كَذَبَ وَلَيْسَ هُوَ نَبِيٌّ، فَإِنَّ هَذَا الْواقع دالٌّ على كَذِبِ الْمُدَّعِي لِلرِّسَالَةِ، لِأَنَّ مَا فَعَلَهُ اللَّهُ لَمْ يَقَعْ عَلَى وَفْقِ دَعْوَاهُ[6] ، ومن هذا القبيلِ ما يُروى في أخبار مُسيلمة الكذَّاب من أنه أرادَ أن يُجاريَ

[1] يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص21.

[2] يُنظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص70.

[3] يُنظر: الخالدي، إعجاز القرآن البيانيُّ، ص19.

[4] يُنظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص70.

[5] يُنظر: مصطفى مسلم، مباحثُ في إعجاز القرآن، ص20.

[6] يُنظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص70. و: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص22.

ما كان يأتي به النبيُّ ﷺ من الآيات، فكان إذا بصق في بئرٍ جفَّ ماؤها، وإذا سُقي بوَضوئه أرضٌ انقطع نباتها، وإذا مسح على صبي ليباركه لثِغَ أو قرِعَ[1]، وهذا الَّذي يُطلق عليه العلماءُ (إهانةً)، فيما إذا حصلت خوارقُ العادات على أيدي الصَّالحين من عباده فإنها تُسَمَّى (كرامةً)[2].

5- تأخُّر الأمرِ المعجِز عن دعوى الرسالة: أيْ أنْ تقع المعجِزةُ بعد ادِّعاءِ النُّبوَّةِ؛ لأنَّها بمثابة الشاهد، ولا يقوم الشاهد إلا بعد قيام الدعوى، أما إذا تقدمت على دعوى الرسالة، فتُسَمَّى: (إرهاصًا)؛ والإرهاصُ: الأمور التي تتقدم على الرسالة وتمهد له، ككلام عيسى عليه السلام وهو في المهد، أو سلام الحجرِ على النَّبيِّ ﷺ في مكَّة قبل البعثة[3].

المسألة الثَّالثةُ: مُصطلحاتٌ مُتعلِّقةٌ بالمُعجِزة

ممَّا ينبغي أن يُعلمَ ههنا، أنَّ مُصطلح (المعجِزة) ليس له وُرودٌ في نُصوص الكتاب والسُّنَّةِ، بل هو مُصطلحٌ مُتأخِّرٌ ظهرت بداياته في أواخر القرن الهجريِّ الثَّاني وأوائل الثَّالث مع حركة التَّدوين، ولكنْ وردت كلماتٌ أخرى مُقاربةٌ لها في معناها، ودلالتها على ما يقدِّمه الرُّسل لأقوامهم من الحجج والبيِّناتِ على أنَّهم رسل الله حقًّا، المبلِّغون عنه رسالاته صدقًا، وهذه الكلماتُ هي: الآية والبيِّنة والبصيرةُ والسُّلطان والبرهان.

1- الآية: كقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾[الإسراء:101]، وقوله سبحانه: ﴿**قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ**﴾[الأعراف:106-108].

2- البيِّنةُ: والبينة هي الدلالة الواضحة عقلية كانت أو حسية. قال تعالى: ﴿**قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً**﴾[الأعراف:73].

3- البصيرةُ: وجمعُها بصائر، وهي الشَّيءُ الواضحُ الظَّاهر؛ الَّذي يُدركُه القلبُ، وتُبصره العين. قال تعالى: ﴿**قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا**﴾[الأنعام:104].

[1] يُنظر: ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج4، ص22-23.

[2] يُنظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص20. و: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص19.

[3] يُنظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص22. و: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص20.

4- السُّلطان: كما يأتي التعبير عن المعجزة أحيانا بالسلطان، وهو الأمر القوي والبرهان الساطع الذي يتمكن من العقول ويهيمن على القلوب؛ فيسوقها منقادةً إلى منطقه. قال تعالى: ﴿**تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ**﴾[إبراهيم:10].

5- البرهانُ: يقول تعالى: ﴿**فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ**﴾ [القصص:32]. والبرهان بيان للحجة وهو أوكد الأدلة ويقتضي الصدق لا محالة[1].

المسألة الرَّابعةُ: التَّحدِّي وما يتعلَّقُ به

– معنى التَّحدِّي: أن يفعل المتحدِّي فعلاً، ثمّ يُطالب خصمه أن يبذل غاية وُسعه في معارضته والإتيان بمثله، وهو على ثقة أنّه غير قادر على مثل هذا الفعل طالبا بذلك إثبات عجزه وضعفه عن مجاراته وغلبته.

– وقد أشرنا – من قبلُ –، أنَّ اشتراطَه في كُلِّ مُعجزاتِ الأنبياءِ غيرُ لازمٍ، لوُجُودِ مُعجزاتٍ غيرِ مُتوجِّهةٍ إلى الكافرين المعاندين أساسًا؛ إذ المعجِزاتُ على ذلك قسمان:

القسمُ الأوَّلُ: مقرونٌ بالتَّحدِّي؛ وهذا يكون مُوجَّهًا للكُفَّارِ المكذِّبين، ليكون شاهدَ صدقٍ للنبيِّ الذي جاء به، وذلك كناقة صالحٍ، وعصا موسى، وإحياء الموتى لعيسى، وإنزال القرآن على سيدنا محمدٍ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والآخر: مُعجِزاتٌ غيرُ مقرونةٍ بالتَّحدِّي؛ وهذه تكون مُوجَّهةً لأتباع النبيِّ لمؤمنين، وليسَ المؤمنون في حاجةٍ إلى تحدٍّ، وذلك مثل انفجار العيون الاثني عشر لموسى عليه السلام، وإنزال المائدة لعيسى عليه السلام، وتكثير الطَّعامِ لنبيِّنا ﷺ[2].

– إذا عُلِمَ هذا؛ فإنَّ القرآن الكريمَ من القسم الأوَّل الَّذي جاء مقرونًا بالتَّحدِّي؛ ذلك أنَّ الكافرين لما جاءَهم النبيُّ ﷺ بالقرآن، وأخبرَهم أنَّه كلامُ الله، كذَّبُوه في هذا، وزعموا أنهم قادرون على الإتيان بمثله، ﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾[الأنفال:31].

فتحدَّاهم القرآن الكريمُ أن يأتوا بمثله في آياتٍ كثيرةٍ وأزمنة مُختلفة، ولكنَّ أشهر آياتِ التَّحدِّي أربعةٌ، وجماهيرُ أهلِ العلمِ على أنَّها مُرَتَّبةٌ على أربعِ مراحلَ كالآتي:

[1] يُنظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص17-18. و: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص21-23.

[2] يُنظر: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، 20-21.

أوَّلاً: أنَّه تحدَّاهم إلى أن يأتوا بمثل القرآن دون أن يُحدد لهم قدرًا معيَّنًا، وذلك في سورة الطُّور، قال ﷻ: ﴿**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ**﴾[الطور:34].

ثانيًا: فلمَّا عجزوا أن يأتوا بمثله، تنزَّل معهم في التَّحدِّي، فطالبَهم بعشرِ سُورٍ مثله فقط، وذلك في سُورة هود، قال سبحانه: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ**﴾[هود:13-14].

ثالثًا: فلمَّا عجزوا عن هذه كذلك؛ أرخى لهم العنان مرَّةً أخرى، وخفَّف عليهم المؤنةَ، واكتفى منهم هذه المرَّة بسورةٍ واحدة، وذلك في سورة يونس، قال ﷻ: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[يونس:38].

رابعًا: فلمَّا لم يُحيرُوا جوابًا، ولم يأتُوا بشيءٍ ممَّا طالبَهم به؛ أعادَ تحدِّيهم للمرَّة الأخيرة أن يأتوا بسورة واحدةٍ تُشبه القرآن، ولو بوجهٍ من الوُجوه، وذلك في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾[البقرة:23-24][1].

يقول الرَّافعيُّ رحمه الله (ت:1356هـ=1937م) في هذا الصَّدد: «أما الطريقة التي سلكها إلى ذلك، فهي أن التحدي كان مقصوراً على طلب المعارضة بمثل القرآن، ثم بعشر سوَر مثله مفتريات لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة، وليس إلا النظم والأسلوب، وهم أهل الله ولن تضيق أساطيرهم وعلومهم أن تسعها عشر سور، ثم قرَن التحدي بالتأنيب والتقريع، ثم استفزَّهم بعد ذلك جملة واحدة كما ينفجُ الرَّمادُ الهامدُ، فقال: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾[البقرة:23-24]، فقطع لهم أنهم لن يفعلوا، وهي كلمة يستحيل أن تكون إلا من الله، ولا يقولها عربي في العرب أبداً، وقد سمعوها واستقرت فيهم ودارت على الألسنة، وعرفوا أنها تنفي عنهم الدهر نفياً وتعجزهم آخر الأبد فما فعلوا ولا طمعوا قطُّ أن يفعلوا»[2].

– وممَّا يُلاحظُ من آيات التَّحدِّي الأربعةِ، أمورٌ أهمُّها:

[1] يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، 31-32.

[2] الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص118.

أ- يسبق آيات التحدِّي تشكيك الكافرين في مصدريَّة القرآن، واتِّهام النبيِّ ﷺ بافترائه، فتأتي آية التَّحدِّي لإبطال هذا الزَّعم وتفنيد هذا الإفتراء.

ب- أنَّ المراحلَ الثَّلاثة الأولى من التَّحدِّي كانت في مكَّة، لأنَّ سُورَ الطُّور وهود ويونس مكِّيَّةٌ، فيما كانت المرحلة الرَّابعةُ في المدينةِ، إذ البقرةُ مدنيَّةٌ، وهذا دالٌّ على تأكُّد عجز العرب عن المعارضة على تطاول المدَّة وفسحِ المهلة.

ج- الآيةُ الرابعة (من سُورة البقرة) مُختلفةٌ عن الثلاثة الأولى من حيث السياقُ ومن حيث الأسلوب؛ أمَّا من حيث السياقُ فإنَّ المقصُود بالتحدِّي فيها الناس جميعًا وليس العرب فقط، بدليل أنه قبلها مباشرةً قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة:21-22]. وأمَّا من حيث الأسلوب؛ فإنَّ آية البقرة فيها زيادة (مِن) في قوله تعالى: (فاتوا بسورة من مثله) فيما خلت منها الآياتُ الأخرى (فلياتوا بحديث مثله)، وهذا يُشيرُ إلى أنَّ العرب تُحُدُّوا في الآياتِ الثلاثة الأولى إلى أن يأتوا بمثل القُرآن بيانًا وبلاغةً وفصاحةً؛ لأنَّ هذه الأمور هي الَّتي كانت بضاعتهم، فيما كانت آيةُ البقرةِ تحدِّيًا للنَّاسِ أجمعين أن يأتوا بسورة من مثل القرآن بأيِّ وجهٍ من الوُجوه، وهذا يدلُّ على أن أوجه إعجازه كثيرةٌ وليست قاصرة على الوجه اللُّغويِّ البيانيِّ[1]. والله أعلم.

[1] يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص32-33. و: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص56 وما بعدها.